

الأدب والمتأدبون

للمؤلف: محمد برانق

ثورة في الأدب حقاً ، تلك التي قامت في رموس الشداة من إخواننا الذين لم ينهلوا من الأدب ما ينقع غلتهم ، وتعجلوا الزمن ، وأرادوه على أن يبكر بهم سنوات ، وأبوا إلا أن يكونوا منتجين ، وإن لم يأت زمن الحصاد بعد . وثورة أيضاً أضرم نارها في رموس الأدباء مارأوا من هؤلاء بما عدوه استهانة بتلك الحرفة التي قدر الله عليهم أن تدركهم ؛ فقامت قيامة بعضهم في هذه الأيام ، فرفعوا أصواتهم ، وسالت نفوسهم على أسلات أقلامهم ، منادين بأن الأدب قد تجنى عليه قوم ، فأضاعوا كرامته ، وأساء إليه صبيان حشروا أنفسهم بين الأدباء حشراً ، وفرضوا هذيانهم على الأدب فرضاً ، فأدخلوا فيه مالا يصح أن يكون منه ، أو أن ينسب إليه ، وجاءت منتجاتهم نكبة على اللغة ، وطامة كبيرة على الأدب العربي ؛ لأنهم يظنون أنهم سيكون لهم من وراء ما يصنعون شهرة واسعة ، ويصور لهم خيالهم الكاذب أن وريقات ينفق على طبعها وتزيينها ، وإخراجها للناس ؛ بعض المال - لعل بطنه كان أحوج إليه من كتابه - ستجعل اسمهم معروفاً عند الخاص والعام ، وأنه سيكون له ذكر يطبق الخافقين ، وأنه حيث يسير يشير إليه الناس بالبنان ، وأن عيون جميع الذين يقابلونه تكون شاخصة إليه ، معجبة به ، مفتونة بما أنعم به على الأدب من جهد ضم إليه ثروة جديدة ، فيها معان مبتكرة ، وأساليب مستحدثة ، وأخيلة لم يحم في جوها متقدم ولا متأخر .

رفقا بأنفسكم أيها الأدباء ، فإن مصيبة الأدب بمثل هؤلاء ليست بنيت

اليوم ، وليست وليدة هذه السنين ؛ ولكنها وجدت مع الأدب منذ عرف
الناس الأدب ، فهي قد سايرته مع الزمن ، وظلت باقية إلى اليوم ، وستظل
كذلك مادام الأدب حيا . « رروا أنه جاء رجل إلى أبي عمرو بن العلاء فقال :
إن ابني هذا يقول الشعر ، فأحب أن تسمع شعره ، قال : أنشد ، فلما أنشد
وفرغ من إنشاده ، قال أبو عمرو لأبيه : الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشعور ،
وشويعر ؛ قال : فابني من هو من هذه الثلاثة ؟ ، قال : ليس هو بواحد منهم »
ولولا وجود مثل هؤلاء لما قسموا الشعراء إلى هذه الأقسام التي نظمها
بعضهم في قوله :

الشعراء فاعلمن أربعة فشاعر ينشد وسط الجمعة
وشاعر آخر لا يجري معه وشاعر يقال خمر في دعة
وشاعر لا يرتجى لمنفعة

وقد زاد عليها أحد الظرفاء : وشاعر مستوجب أن تصفعه .
وأنت إذا بحثت بحثا تاريخيا أدبيا في أي عصر من عصور الأدب ، وجدت
الجيد والزائف ، وصادفك الغث والسمين ، ووقعت على الرفيع والوضيع ،
فيكون هذا مبعث إعجابك وإجلالك ، وذلك محل سخطك ، وموضع ازدراءك ،
فإذا قضى جيلنا الذي نحن فيه ، وخلف من بعدنا خلف عنوا بدراسة تاريخ
الأدب ؛ وجدوا بجانب جيدكم ردى غيركم ، فينصفكم التاريخ وينصفهم ،
ويقدركم ويقدرهم ؛ فهونوا عليكم ، ولا تشفقوا على ثمرة قرائحكم ، فإن في رؤوس
الناس عقولا تفكر ، وأدمغة تقدر ، والصالح يبق ، وغير الصالح مقضى عليه
بالفناء قبل أن يدرج ؛ وذلك ناموس الحياة ، وشأن كل شئ .

حكى يوسف بن يحيى بن علي المنجم عن أبيه ، قال : أكثر هذه الأشعار
الساذجة الباردة تسقط وتبطل إلا أن ترزق حمقى فيحملون ثقلها ، فتكون
أعمارها بمدة أعمارهم ، ثم ينتهي الأمر بها إلى الذهاب ، وذلك أن الرواة

ينبذونها، وينفونها، فتبطل. قال الشاعر:

يموت ردىء الشعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائله
ويظهر أن ضياء الدين الموصلى صاحب المثل السائر كان يتكلم بلسانكم
يوم قال: «وقد رأيت جماعة من متخافى هذه الصناعة، يحملون همهم مقصورا
على الالفاظ التى لا حاصل وراءها، ولا كبير معنى تحتها، وإذا أتى أحدهم
بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الغثاثة والبرد، يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم،
ولا يشك فى أنه صار كاتباً مفلحاً، وإذا نظر إلى كتاب زماننا، وجدوا
كذلك، فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدي الجهال الاغمار، ولا يعلم أنه
كجواد يمشى تحت حمار، ولو أنه لا يتناول إليه إلا أهله لبان الفاضل من الناقص
على أنه كالرمح الذى إذا اعتقله حامله بين الصفين، بان به المقدم من الناكص،
وقد أصبح فى يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم. وقد قيل: إن
الجهل بالجهل داء لا ينتهى إليه سقم السقيم». ١٠ هـ من المثل السائر ص ١٣٦
وأما إخواننا الشداة فى الآدب، فلعلمهم لا يعرفون عن المتنبي وأبى تمام
وعن عمر بن أبى ربيعة وأبى نواس وغيرهم أكثر من أسمائهم، ولعلمهم
لا يحفظون لشوقي وحافظ أكثر مما جرى على ألسنة صبية المدارس.

فإنى أنصح لهم، مشفقاً عليهم، رحيماً بهم، غير محتاج إلى رضاهم، وغير
مبال سخطهم، أن يبدؤوا بأنفسهم، فيتزودوا من الآدب ما تسع لهم وقتهم،
وأن يتفروا على دراسة فنونه المختلفة، حتى يحصل لهم من ذلك شىء كثير،
وأن يقرءوا ما كتبه أحمد بن يوسف الكاتب لأخيه. وكان قد سمع له شعراً،
كتب به إلى هوى له، فلم يقع ذلك الشعر من نفسه موقعا حسنا. قال أحمد:
وفقك الله يا أخى للسداد، وهداك للرشاد: فقرأت لك شعراً أنفذته إلى من
تخطب مودته، وتستدعى عشرته فسرني شغفك بالآدب، وساءنى اضطرابك
فى الشعر، وليس مثلك من أخرج من يده شيئاً يعود بعيب عليه، وأعيدك بالله

أن تلج لجة الشعر بلا عزم ينجيك منها ، وسباحة تصدرك عنها ، فتنسب إلى قبيح أمر هويت النسبة إلى حسنه ، فاعرف الشعر قبل قوله ، واستعن على عمله بأهله ، ثم قل منه ما أحببت ، إذا عرفت ما أوردت وأصدرت . . . ثم ساق له شعرا ضمنه معنى ما نثره له . فإذا فهموا هذا أخذوا أنفسهم به ، وإذا أرادوا بعد ذلك أن يجربوا خاطرهم ، فليكن ذلك بينهم وبين أنفسهم فإن أعجبهم ما ينتجون إن صح أن يسمى إنتاجا - فليهم أن يقدموا أنفسهم إلى إخوانهم الأقربين ، الذين يحضونهم النصيح ، والذين لهم عقل يزنون به ما يبسط أمامهم ، فليس كل أخ نصوحا ، وليس كل نصوح قادرا على أن يميز الجيد من الرديء ؛ وعليهم بعد ذلك أن يوسعوا دائرة الاستشارة ، فيعرضوا أمرهم على من هم أدباء حقا ، فيهدونهم الصراط المستقيم ، صراط الذين هداهم الله وبصرهم ، ووقفهم إلى ما فيه صلاحهم ، وصلاح لغتهم . ولا يقصدون مثل أبي الجهم بن أبي سفيان بن أبي العلاء ، يوم أناخ برفقته - هو وأبي عمرو ابن العلاء في أثناء منصرفهم من الحج - رجل أخذ يسأل عن أبي عمرو ، فأرشد إليه فقال : إنك قد ذكرت لي ، وقد قلت شعرا ، فأحب أن أعرضه عليك . فقال أبو عمرو : هذا منصرفنا من الحج ، ونحن في شغل عن الشر ؛ فقال له أبو الجهم : إلى ، فإنك تصيب عندي ما تصيب عنده . فأنشده :

لئن قدمت من دمشق صالحا وقد تمتعت متاعا صالحا

لآتين بالعراق صالحا إني وجدت صالحا لي صالحا

فقال له : أنت أشعر الناس !! فرد عليه أبو عمرو : يا عدو الله ، أتغري

الرجل ؟ . أما تخشى الله ؟ فمثل أبي الجهم صادقا أو مازحا لا يستشار .

وكما أن لهذه الصناعة الأدبية دخلاء ، فإن لغيرها من الصناعات : كالطب

والتدريس دخلاء أيضا ، فليس الادعاء مقصورا على تلك الصناعة ، كما قال

صاحب المثل السائر في كتابه ص ١٣٧ « ومن أعجب الأشياء أني لا أرى

إلا طامعا فى هذا الفن ، مدعيا له ، على خلوه عن تحصيل آلاته وأسبابه ، ولا أرى أحدا يطمع فى فن من الفنون غيره ولا يدعيه ؛ هذا وهو بحر لا ساحل له ، يحتاج صاحبه إلى تحصيل علوم كثيرة ، حتى ينتهى إليه ، ويحتوى عليه ، فسبحان الله ؛ هل يدعى بعض هؤلاء أنه فقيه ، أو طبيب ، أو حاسب ، أو غير ذلك ، من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها ، اه . ويظهر أن زمانه غير زماننا ، فإن الأدعياء لم يتركوا شيئا من غير أن يزجوا بأنفسهم فيه ، إلا أن الآدب أكثر نصيبا من غيره من الفنون ، فليعلم هؤلاء أن الطريق التى يسلكونها طريق شائكة ، كلها شر ، وكلها ضر ، فلا تعرف الخير ، ولا يعرفها الخير ، وهم بذلك غير شاعرين ؛ لأن ما هم فيه من النشوة ، وما هم عليه من الغرور ، وما يغمرهم من الخيال الكاذب ، يحول بينهم وبين معرفتهم حقيقة أمرهم ؛ فتبصروا قليلا ، وتأكدوا ما دام فى الآجل فسحة ، وما دامت العزائم مشحودة ، وما دام فى الأمة من يقدر الناس قدرهم ، فسيكون فيكم خير كثير ، وستنالون ما تبتغون من شهرة ودال . وإن الحدث الذى يريد أن يخرج للناس كتابا لا يكاد يبدوه حتى يرى نفسه قد أتمه ، لا يمكنه أن يقدم لنا ثمرة ناضجة شبيهة . فإن الثمرة تحتاج فى نضجها إلى وقت طويل . وليرجع إلى المتقدمين ليرى أن زهيرا أحد فحول الشعراء كان ينشئ القصيدة الواحدة فى سنة كاملة ، وكان يعود إليها بالتهذيب والتحسين والتعديل ، فيحذف ويضيف ، ويستبدل بكلمة كلمة أخرى . ويرتب الأبيات حتى إذا خرج بعد ذلك وأنشدها ، جاءت درة فى جبين الشعر العربى . وهو إنما كان يفعل ذلك لأنه كان رجلا عاقلا ، يعتقد أنه إنما يعرض على الناس عقله وقلبه معا ، فإن أتى بالمعجب الجميل أعجبهم ، وكانوا جميعا ألسنة ثناء عليه ، وطار الرواة بقصيدته بين الناس فحملها الخاص والعام على ظهر لسانه . وإن أتى بالقبيح المبذل أسقطه الناس من نفوسهم ، وسلقوه بألسنة حداد . وقد قال العباد الأصفهاني . إني رأيت

أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده ؛ لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ؛ وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر . ١ هـ . وإن قليل البصر بالآداب عندما يتصدى لإخراج كتاب للناس ، وليس عنده في خزانة عقله وكتبه ما يستطيع أن ينفق منه ، يضطر اضطرارا — وله العذر طبعاً — إلى أن يتطلع إلى حاجة صاحبه ، فينهبها ويشوهها ، حتى يضيع معالمها ، ويدعيها لنفسه ؛ ظنا منه أنها ستخفى على الناس فلا يعرفونها ، وهذا هو الذي سموه السرقات الأدبية . التي كثر الكلام عنها في الشهور الأخيرة ، وخاض الكاتبون فيها كل مخاض ، وتربص بعضهم لبعض ، وشهر كل نزيه لأخيه قلبه ، يصلى به السارق من لاذع الكلام ألوقا ، وأظهروا الأسى والحسرة لوجود النفوس الضعيفة المستهينة الجريئة في التزوير إلى حد يجعلها تسطو عيانا على ما يبذل فيه غيرهم جهدا قد يكون عظيما ، وينشرونه في صحيفة سيارة ، قد يقرؤها الألوف من الناس ، فيبدو لهم مالم يكونوا يحتسبون من افتضاح أمرهم . وانكشف سترهم ؛ ثم هم لا يبتغون نفقا في الأرض ، يتوارون فيه عن أعين أصدقائهم وإخوانهم ، بل يتبجحون ويمارون ، وكأنما لم يلقموا في أفواههم أحجارا ؛ وهؤلاء نضيب ماء الحياة من وجوههم ، حتى لم يبق منه قطرة ، ولا بعض قطرة . وأى صنف من الناس أقل حياء ، وأكثر تبجحا من هؤلاء . ألا ترى أن السارق الذي يسلبك مالك ، أو متاعك ، يمعن في الأرض كي يعجز الشرطة هربا . حتى لا تقع عليه أعينهم ، فتقبض عليه ، وتسلمه إلى قضاء عادل ، فينال عقوبتين : أولاها محاسبته حسابا عسيرا على سرقة ، وثانيتها افتضاح أمره ، وليست الثانية أقل خطرا من الأولى ، بل هي أعظم منها أثرا ، وكلما كان الجاني أعلى مقاما ، وأعز نفسا ، كان افتضاحه الأدبي أشنع وأشنع . وهذا ينحل نفسه قولة قلتها ، أو كلبة حبرتها ، أو يسلبك

فصلا من كتاب ألفته ، أو يلتقط من فيك بحثا تحاضر فيه ملأ من الناس ، أو يدون مذكرة من لسان أستاذه في درس ، أو غير ذلك ، وإذا جعلت السارقين درجات ، بعضها دون بعض ، كان سارق كنوز العقول ، وناهب بنات الأفكار ، مستقرا في أخط الدرجات ، منبوذا في أدنى المنازل ، تقتحمه الأنظار ، وتتخطاه الأبصار ؛ فهو ليس في المجتمع أكثر منزلة من تلك الحشرة الدنيئة التي تسكن بين طيات ثيابه ، ثم تمتص غذاءها من طعامه المهضوم ، وتستحله لنفسها هنيئا سائغا . والسرققات الأدبية وإن مهت في هذه الأيام كثيرا ، وجرى ذكرها على لسان كثير من الكتّابين ؛ لأن بعض المغرورين من الشبان تورط فيها من غير تعقل ولا روية ، فنسبوا لأنفسهم ما ليس لهم ، فنبشه لهم أربابه ، وأظهر خبيثتهم من يعز عليهم — أن يندس بين الأدباء والكتّابين أوغاد أنذال ضعاف النفوس ، فاقدو المروءة ، جراء على الفضيلة ، رفاق الأعراض ، خفاف الأقدار ؛ وامتنع من هذا أن يجمع إنسان كلاما ، ثم يتجنى بحسه الكدر ، وذوقه المريض على الأدب والأدباء ، ويحشر نفسه في زمرتهم ، ويقوم بطبع ما جمعه في وريقات يضمها بين دفتين ، ويسميها كتابا . وقد يحىء بمقدمة يصنعها هو ، ويزيلها باسم كاتب معروف ، ويظهر بعد ذلك أن هذا الكاتب المعروف لا يعرف الكتاب ، ولا صاحب الكتاب حتى يكتب له مقدمته ، ثم ينبرى لتكذيب ما نسب إليه . فيا بؤس لهذا الزمن الذي يبلغ فيه تبجح ضعاف النفوس إلى هذا الحد .

إننا لنرى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال ولا نخلل الصحف بعد ذلك من العتب ، فإنها تفسح المجال لهؤلاء ، وتنفرد فصولا لهم ولا صدقاتهم كلها مدح فيهم ، وثناء عليهم ، والجرائد مدرسة الشعب يتعلم منها ، ويتأثر بها ، فهي توجهه حيث تريد ، فإذا أشادت بذكر هذا

النوع من الأدب ، شغلت الناس عن الصحيح منه ، ويظنون أنهم يقرءون لونا
عاليا من ألوان الأدب .

ولا نقيس نضج هؤلاء . بأهم يأتون بكل شيء جديد ، فليس الذي ينظم
قصيدة مثلا يجب عليه أن يأتي بجميع معانيها جديدة ، لأن هذا أمر ليس في
طوق أحد ، ولكنه فوق طوق البشر جميعاً . وإنما يريدون أن يكونوا جدد القلوب
جدد الأقلام ، جدد المعاني ، ماوسعهم هذا ، ألا ترى أن أبا تمام الشاعر الفحل
يعد المتأدبون شيخ المخترعين للعاني ، لأنه أكثر الشعراء اختراعا . ولكن
كم معنى اختراعه أبو تمام ؟ . إذا كنت لا تعرف ما أحصوه له من المعاني
الجديدة ، وعرفت أنه إمام المخترعين ، ظننت أنه كان يخترع في كل قصيدة له
معنى أو أكثر ، فيزيد عدد هذه المعاني على ألف معنى ، ولكن الواقع غير
هذا ، فإن مجموع ما أحصوه له عشرون معنى جديداً أو أكثر قليلا ، وهذا القدر
جعله على رأس المخترعين . اقرأ ما ذكره ضياء الدين الموصلي في كتابه المثل
السائر ص ١٢٥ : « وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداءا للعاني
وقد عدت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ، وأهل هذه
الصناعة يكبرون ذلك . اهـ . فإذا أبو تمام لم يخترع أكثر من عشرين معنى ،
فمعانيه الكثيرة الباقية مأخوذة من غيره ؛ ولكن لا يحسن الأخذ إلا من يحسن
المعرفة . قال الأخطل : نحن معشر الشعراء أسرق من الصاغة .

وبعد : فلا ندري من ذا الذي يعتبر نفسه من أولئك الذين نشدد عليهم
النكير ، ونقصدهم بهذه الكلمة ، فيكون لهم من وراء ذلك عبرة تحول بينهم
وبين العود إلى مثل هذا .

ولا يظن هؤلاء الذين نعتهم بتلك الكلمة أننا نتحامل عليهم ، أو نريد
بهم سوءا ، فإن الأمر أهون من ذلك . وأنا إذ أتحدث إليهم ، أريد لهم الخير
بالأب لا يتعجلوا الزمن ، وبأن يترشوا ، فالمستقبل لهم إذا دأبوا على التحصيل ،

وليعلموا أنهم خير ألف مرة من كثير ممن نعرفهم من الذين هياتهم طبيعة عملهم
لأن يكونوا من الذين يمتون إلى الآدب بصلة ، ولكنهم يوم تركوا مدارسهم
وحصلوا على شهادتهم ، تركوا فيها عقولهم ، وخلفوا بين جدرانها أساس
ثقافتهم ، واعتقدوا أنهم ماداموا يتقاضون من خزانة الدولة آخر كل شهر
ما يكفل لهم العيش ، فقد أمنوا كل شر ، وضمنوا السعادة لأنفسهم ، وقضوا
أوقاتهم جلوسا على المقاهى ، يتندرون ويسخرون ، وليتهم يصونون ألسنتهم
ويغفلونها عن ذهب فى الحياة مذهب الجد ، وجعل هواه فى كتبه ، يتوفر
عليها ، وإنما هم إن آتى بالمعجب آتهموه ، وإن آتى بغيره سلقوه ، فويل لهم
وويل للآمة منهم ؟

محمآ أصمآ برانس